في الاجتماع اللغوي

تطـــور الدلالة

أنواع التطور الدلالي وخواصه

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ترجع ظواهر التطور الدلالي إلى ثلاثة أنواع :

(أحدها) تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة ... وما إلى ذلك ، كقواعد الاشتقاق والصرف (المورفولوجيا) والتنظيم (السنتكس) ... وهلم جرا . وذلك كما حدث في اللغات السامية المنشعبة من اللغة العربية إذ تجردت من علامات الإعراب[1] وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق[1] واختلفت مناهج تركيب العبارات[2] .

(وثانيها) تطور يلحق الأساليب ، كما حدث للغات المحادثة العامية المنشعبة عن العربية إذ اختلفت أساليبها اختلافاً كبيراً عن الأساليب العربية الأولى ، وكما حدث للغة الكتابة في عصرنا الحاضر إذ تميزت أساليبها كذلك عن أساليب الكتابة القديمة تحت تأثير الترجمة ، والاحتكاك بالآداب الأجنبية ، ورقي التفكير ، وزيادة الحاجة إلى الدقة في التعبير عن حقائق العلوم والفلسفة والاجتماع ... وهلم جرا .

(وثالثها) تطور يلحق معنى الكلمة نفسه ، كأن يخصص معناها العام فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل ، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلي ومعاني أخرى تشترك معه في بعض الصفات ، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما وتصبح حقيقة

(١) يوقف في جميع هذه اللهجات بالسكون على جميع الكلمات المعربة بالحركات ، وتلتزم حالة واحدة في الكلمات المعربة بالحروف (المثنى ، جمع المذكر السالم ، الأسماء الخمسة ... الخ . فيقال أخوك مجتهد ، ضربت أخوك ، سلم لي على أخوك ...) . فوظيفة الكلمة في الجملة لا تفهم في لغاتنا العامية إلا من مجرد السياق أو من ترتيبها بالنسبة لبقية عناصر الجملة

(١) تغيرت وجوه التصريف العربية تغيراً كبيراً في اللغات العامية ، حتى لا تكاد تبقى فيها على فعل باق على حالته العربية الصحيحة من هذه الناحية

(٢) فمن ذلك مثلا نعت المثنى بصيغة الجمع (فيقال « كتابين كبار » ، بدلا من « كتابين كبيرين ») وتأخر الاشارة في تركيب الجملة عن المشار إليه ، (فيقال مثلا في عامية المصريين : « الكتاب ده ، الكتابين دول ، الرجاله دول » ، بدلا من : « هذا الكتاب ، هذان الكتابان ، هؤلاء الرجال »)

« النثر الفني » ، وليس عندي ما أقوله بعد ذلك البحث المفصل ، فمن كان يهمه أن يعرف أسرار « المكافأة » فليقرأ ذلك البحث . أما كتاب الأدب التوجيهي فسأخصه بمقال أو مقالين بعد أسابيع

الهجوم الأثيم على الشيخ سيد المرصفي

كثرت الخطابات التي ترد إليّ في تحقيق ما ادعاه الأستاذ السباعي بيومي في حق الشيخ سيد المرصفي ، وكنت أغفلت هذا الموضوع عن عمد ، لأن الأستاذ السباعي له عليّ حقوق ؛ فقد كان دائماً من أنصاري ، ولم آخذ عليه ما يريب ، ولأن مقام الشيخ المرصفي أقوى من أن يُهدَم بكلمة جارحة تساق إليه في إحدى المحاضرات

ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصاف للشيخ المرصفي أزعجني ، وكنت أرجو أن يكونوا درعاً واقية لذلك الشيخ الجليل ، وهو رجل لم ير مثله الأزهر منذ أجيال طوال

فماذا أصنع ؟

مضايقة الأستاذ السباعي بلاء ، لأنه صديق ، والسكوت عن نصرة الشيخ المرصفي بلاء ، لأنه أستاذي ، فماذا أصنع ؟

سأنقل القضية من وضع إلى وضع ، فأصيرها قضية أدبية لا قضية شخصية ، وأبيّن أن السباعي بيومي يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي

ولكن كيف ؟

سيرى صديقنا السباعي أن « تهذيب الكامل » لم يكن إلا جناية أدبية ، وسيعرف أن التطاول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب

وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفي سرق بعض أفكاره ، فليستعد للدفاع عن النظرية التي نهبها نهباً من كتاب « النثر الفني » ونشرها في مجلة « السراج »

ولكن على شرط أن يؤمن في سريرة نفسه بأني أكره البغي على أصدقائي ، وأن أسرى لم يكن إلا شبيهاً بأسر أكثم ابن صيفي حين قال : « إن قول الحق لم يَدَع لي صديقاً »

وإلى اللقاء في غير بغي ولا عدوان ، فما أستبيح إيذاء أصدقائي ، ولو ظلموا أنفسهم فظلموني

زكي مبارك

فى هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازاً فيه ، أو تستعمل فى معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول . . . وهلم جرا .

* * *

هذا وللتطور الدلالى بمختلف أنواعه خواص كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — أنه يسير ببطء وتدرج . فتغير مدلول الكلمة مثلاً لا يتم بشكل فجائى سريع ، بل يستغرق وقتاً طويلاً ، ويحدث عادة فى صورة تدريجية ، فينتقل إلى معنى آخر قريب منه ، وهذا إلى معنى ثالث متصل به . . . وهكذا دواليك حتى تصل الكلمة أحياناً إلى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول . فكلمة bureau مثلاً كانت تطلق فى المبدأ على صنف خاص من الأقمشة الصوفية étoffe de bure ، ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لاتخاذه غالباً من هذا الصنف ، ثم أطلقت على مائدة المكتب نفسها ، ثم أطلقت على مقر العمل والإدارة الملازمة المكتب له . فلا علاقة مطلقاً بين أول مدلول لهذه الكلمة وهو القماش الصوفى وآخر مدلول لها وهو مقر العمل والإدارة ، على حين أن العلاقة وثيقة بين كل معنى من المعانى التى اجتازتها والمعنى السابق له مباشرة[1]

٢ — أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلى لا دخل فيه للإرادة الإنسانية . فسقوط علامات الإعراب فى اللهجات العربية الحاضرة ، وتغير أوزان الأفعال[2] ، وتأنيث بعض الكلمات المذكرة ، وتذكير بعض الكلمات المؤنثة[3] ، وجمع صفة المثنى ، وتأخير الإشارة عن المشار إليه ، وتزحزح كثير من المفردات عن مدلولاتها الأولى إلى حقائق جديدة . . . كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه فى صورة آلية لا دخل فيها للتواضع أو إرادة المتكلمين

(١) هذه الخاصة صحيحة فى تطور الكلمات وتطور الأساليب . أما تطور القواعد فكثيراً ما يحدث بدون تدرج

(٢) فيقال مثلا : « كِبِر ، يِكبَر » بدلا من « كَبِر ، يَكْبَر » أو « كُبُر ، يكبُر » ومثل هذا يقال فى معظم الأفعال العربية

(٣) فيقال مثلا فى عامية المصريين : « رأس كبيرة وبطن كبيرة » . بدلا من « رأس كبير وبطن كبير »

٣ — أنه جبرى الظواهر لأنه يخضع فى سيره لقوانين صارمة لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدى إليه . وإليك مثلاً حالة اللغة العربية ، فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها فى القواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التى تتفق مع قوانين التطور اللغوى — فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللهجات العامية

٤ — أن الحالة التى تنتقل إليها الدلالة ترتبط غالباً بالحالة التى انتقلت منها بإحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعى المعانى[1] وتعنى بهما علاقة المجاورة والمشابهة[2] . فتارة يعتمد انتقال الدلالة على علاقة المجاورة المكانية ، كتحول معنى ظعينة (معناها فى الأصل المرأة فى الهودج) إلى معنى الهودج ومعنى البعير[3] ؛ وتحول معنى ذقن فى عامية المصريين إلى معنى اللحية[4] ، وتحول معنى bureau من غطاء المكتب إلى المكتب نفسه ، وكتأنيث الرأس فى عامية بعض المناطق المصرية (انتقل إليه التأنيث من الأعضاء المجاورة له وهى العين والأذن) . . . وهلم جرا . وتارة يعتمد على علاقة المجاورة الزمنية ، كتحول معنى الوغى إلى معنى الحرب ، بعد أن كان معناها اختلاط الأصوات فى الحرب (فلا يخفى أن العلاقة بين هذه الأصوات والحرب هى علاقة المجاورة الزمنية) ؛ وكتحول معنى العقيقة (هى فى الأصل الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه) إلى معنى الذبيحة التى تنحر عند حلق ذلك الشعر[5] . وكتذكير كلمة été (فصل الصيف) التى كانت مؤنثة فى الأصل لمجاورة مدلولها مجاورة زمنية لمدلول كلمة مذكرة وهى Printemps فصل

(١) من المقرر فى علم النفس أن حضور معنى ما يدعو إلى الذاكرة بعض المعانى المرتبطة معه بعلاقة المجاورة أو المشابهة

(٢) هذا هو تفصيل ما يقصده علماء اللغة ، إذ يقررون أن تطور الدلالات خاضع لقانون التماثل Loi de l'analogie

(٣) المزهر للسيوطى الجزء الأول ص ٢٠٧

(٤) الذقن فى الأصل هو مجمع عظمى الحنك . ولا يخفى أن هذا الموضع مجاور للشعر النابت فى الوجه

(٥) المزهر للسيوطى الجزء الأول ص ٢٠٧

الربيع[1] . وتارة يعتمد على علاقة المشابهة ، كتحول معنى الأفن (وهو فى الأصل قلة لبن الناقة) إلى معنى قلة العقل والسفه ، وتحول معنى المجد (وهو فى الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف) إلى معنى الامتلاء بالكرم ... وهلم جرا[2]

٥ — إن التطور الدلالى فى غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهره تقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص . ولا نكاد نعثر على تطور دلالى لحق جميع اللغات الإنسانية فى صورة واحدة ووقت واحد

٦ — أنه إذا حدث فى بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة . فسقوط علامات الإعراب فى لغة المحادثة المصرية لم يفلت من أثره أى فرد من المصريين

***

ومن هذه الخواص يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصدد هذا التطور

فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذا التطور نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة[3]

وليس بصحيح كذلك ما ذهب إليه أعضاء المدرسة الإنجليزية وبعض الباحثين من الفرنسيين كالعلامة بريال Bréal إذ يرون أن التطور الدلالى يسير باللغة نحو التهذيب والكمال ويسد ما بها من نقص ويخلصها مما لا تدعو إليه الحاجة . وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا فى تطور اختيارى مقصود تقوده الإرادة الإنسانية فى سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الذى نحن بصدده تطور تلقائى آلى لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالسبل التى تقول بها هذه النظرية . وإن موازنة بين الحالة التى كانت عليها اللغة العربية فيما يتعلق بدلالة ألفاظها وقواعدها فى الإعراب وغيره وما آلت إليه فى اللغات العامية الحاضرة لأكبر دليل على ما نقول ؛ فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه دائماً نحو التهذيب والكمال ، بل أدى فى معظم مظاهره إلى اللبس فى دلالة الكلمات والخلط بين وظائفها وأنواعها وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها إلى منزلة وضيعة فى التعبير . وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات . وإليك مثلاً قواعد اللغة اللاتينية التى انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها ، فإن معظم هذه القواعد كان كبير الفائدة فى بيان وظيفة الكلمات وتحديد مدلولاتها وتعيين العلاقات التى تربط عناصر العبارة بعضها ببعض ، وقد أدى انقراض هذه القواعد فى اللهجات المنشعبة عن اللاتينية إلى كثير من اللبس والاضطراب

حقاً إن هذه المذاهب تصدق على بعض مظاهر التطور الدلالى الخاص بلغات الكتابة ، فتطور لغات الكتابة يعتمد فى كثير من نواحيه على عوامل أدبية مقصودة ترمى إلى تنقيح اللغة وتهذيبها والسير بها فى سبيل الكمال .

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السوربون

(١) كانت الفصول فى الفرنسية القديمة من حيث التذكير والتأنيث على النحو الآتى : الربيع (مذكر) ، الصيف (مؤنث) ، الخريف (مذكر) ، الشتاء (مذكر) . ثم انتقل تأنيث الصيف إلى الخريف ، وانتقل فيما بعد تأنيث الخريف إلى الشتاء ، فأصبحت الفصول جميعها مؤنثة ماعدا الربيع ، ولكن تذكير الربيع لم يلبث أن انتقل فيما بعد إلى الصيف وتذكير الصيف رد إلى الخريف والشتاء توهما للمذكر القديم فأصبحت جميع الفصول مذكرة فى اللغة الفرنسية الحالية

(٢) قد يعتمد انتقال الدلالة من حالة إلى حالة على علاقة التضاد بين الحالتين (إطلاق الكلمة مثلا على ضد مدلولها القديم) ، والتضاد فى الواقع مظهر من مظاهر التشابه ، إذ لا يوجد تضاد شيئين يشتركان فى صفة عامة كالطويل والقصير ، والأسود والأبيض ، وهلم جرا . أما الأسماء اللذان لا يشتركان فى صفة ما فلا يوجد بينهما تضاد كالأحمر والطويل مثلا

(٣) قال بهذا الرأى الفاسد جماعة من العلماء على رأسهم Sayce, Sweet, Jespersen, Ird

لازكام بعد الآن!
أحدث الاكتشافات العلمية فى صحة الفم!
اليود فى عجينة للأسنان:
يودكاليكلور
اطلب النشرة العلمية الخاصة من:
جلان نورمان صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر
(س . ت ٥٢٢٢)